هتلر والعشق المحرم

(١٨٨٩ م - ١٩٤٥ م)

رجل عادى نصف متعلم، مريض نفسيًا وجسميًا، فاشل منذ الطفولة وفى شرخ الشباب، حاول الانتحار أكثر من مرة ليتخلص من هذا الفشل، اتجه إلى الرسم لعله يصبح فنانا كبيرًا ولم يستطع، وعمل بالسياسة مع جهله الشديد بها، واستغل موهبته الكبيرة وعبقريته المنطلقة فى الخطابة فسحر الجميع بكلماته القوية وطموحه الفذ، ولمع كقائد للجيش وزعيم لحزب العمال الألمانى الوطنى الاشتراكى، لكن الفشل كان صديقه المخلص فروع العالم بالحرب العالمية الثانية والتى راح ضحيتها حوالى ٥٥ مليون نسمة، وحتى فى حياته العاطفية لم يتركه الفشل يهنأ بحبه بل أوقعه فى حب محرم شاذ.

إنه الزعيم «أدولف هتلر» الذى يرتبط اسمه بالفشل والحرب والشذوذ والأمراض النفسية والقتل والدمار ومعسكرات التعذيب.

ولد «هتلر» فى اليوم العشرين من شهر إبريل سنة ١٨٨٩ فى قرية «برادناو» التى تقع على الحدود بين المانيا والنمسا، كان أبوه موظفًا صغيرًا فى الجمرك، ثم أحيل إلى المعاش فعمل بالفلاحة فى قريته (لامباخ) وأرسل ابنه إلى المدرسة، ولم يظهر «هتلر» فى طفولته أى نوع

من أنواع النبوغ، لا فى الدراسة ولا فى الحياة الاجتماعية، ومن سوء حظه أنه ورث عن أبيه عصبيته الشديدة وحدة الطبع، ومع أنه كان خجولا إلا أنه لا يستطيع تحمل أن يختلف أى إنسان معه فى الرأى، ففى الحال ينفجر معبرًا عن ضيقه وضجره.

من الطريف أن هذه السنة التى ولد فيها «هتلر» سنة ١٨٨٩ شهدت ميلاد مجموعة من المفكرين والقادة أفادوا العالم بفكرهم وسياستهم. منهم الكاتب العملاق «عباس محمود العقاد»، عميد الأدب العربى الدكتور «طه حسين»، المؤرخ البريطانى «أرنولد توينبى»، الفنان الإنجليزى البارع «شارل شابلن:»، الزعيم الهندى «نهرو»، الفيلسوف الألمانى «مارتن هيدجر»، الشاعران «إيليا أبو ماضى» و «ميخائيل نعيمة» وغيرهم، وقد كانوا صورة مشرقة للعصر ماعدا صاحبنا «هتلر» الذى أساء استخدام السلطة ونشر الخوف والرعب والقتل والدمار.

وعندما وصل «هتلر» إلى الثالثة عشرة من عمره فقد أباه ثم توفيت والدته بعد ذلك، وهام على وجهه وحيدًا شريدًا، ترك التعليم بحجة ضعف المدرسين، وأخذ يقرأ كتب التاريخ والفلسفة قراءة سريعة محاولا تعويض جهله وعدم انتظامه فى الدراسة، وقضى فى فيينا خمس سنوات كانت أتعس أيام حياته، كما يقول فى كتابه الوحيد «كفاحى» وتبدد المال الذى ورثه عن أبيه فأخذ يبحث عن أى عمل ليجد قوت يومه ويسد رمقه من الجوع الشديد، عمل معاونا للبناء وفى أعمال الدهان، وفى تنظيف المنازل، وشيالا داخل وخارج محطات السكك

الحديديـــة. وحاول فى هـــذه الفترة أن يجرب حظه فى الرســم ولكن أكاديمية الفنون فى فيينا رفضت طلبه مرتين لضعف مستواه الفنى.

كان «هتلر» شــابًا شــاحب اللون.. نحيفا.. لا يهتم بطعامه ولباسه وأناقتـــه.. قليل الاختلاط بالأصدقـــاء.. نباتيًا فى طعامه ويكره الخمور والتدخين، يعيش حياة بســيطة، وأهم ما يلفــت إليه الأنظار عصبيته الشديدة وثورته على كل ما يخالف رأيه.

فى نهاية سنة ١٩١٣ ترك «هتلر» النمسا هربًا من الخدمة العسكرية فيها واتجه إلى ميونيخ، وكان المفروض أن يلتحق بالجيش منذ سنوات ولكنه لم يفضل ذلك، والغريب أنه التحق بعد ذلك فى الجيش الألمانى، بل واشــترك فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وأبلى بلاء حسنًا، وجرح وفاز بوســام الشــجاعة (وســام الصليب الحديــدى) وارتقى إلى رتبة جاويش، وحزن حزنًا شــديدًا على هزيمة ألمانيا وبكى لشــجاعة الجنــدى الألمانـــى المهزوم، لكنه لم يستســلم للحـــزن والهزيمة فأخذ يجتمع بالشــباب ويقوى مـــن عزيمتهم ويســحرهم بكلماته الصارخة المُفْعَمَة بالأمل والمستقبل العظيم لألمانيا الكبرى والتى هى فوق الجميع، وانضم إليه مئات بل وآلاف الشــباب ووجدوا فيه السلوى عن الهزيمة والصورة المشــرقة للمستقبل الموعود فى سنة ١٩١٩ انضم هتلر إلى حزب يمينى متطرف فى مدينة ميونيخ، وســرعان ما غير هذا الحزب اسمه إلى حـــزب العمال الألمان الوطنيين الاشــتراكيين، وقد اســتطاع «هتلر» الســيطرة على الحزب حتى أصبح قائـــده الأوحد وزعيمه دون منافس،

وقد اشتهر اسم الحزب بعد ذلك بالنازى، وهو الحروف الأولى من كلماته، واستطاع الحزب أن يجد له أرضًا خصبة وسمعة طيبة فى ألمانيا، وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٣ حاول «هتلر» مع مساعديه من أعضاء الحزب إحداث انقلاب فى حكومة بافاريا فهاجموا كبار الضباط والوزراء وأطلقوا عليهم الرصاص ولكن البوليس رد عليهم بالمثل وألقى القبض على «هتلر» وصدر عليه حكم بالسجن لمدة خمس سنوات، ولم يكمل سنوات السجن إذ استطاع بعد عدة أشهر الهرب بمعاونة وزير العدل، وقضى «هتلر» ١٣ شهرًا خلال سجنه فى تأليف كتابه الوحيد «كفاحى» يعرض فيه قصة حياته ونشاطه السياسى وفلسفته الخاصة.

يقول وليام شيرر المؤرخ الأمريكى الذى عاصر «هتلر» : إن الأخير أراد أن يطلق على كتابه اسم «أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والبلادة والجبن» ولكن «ماكس أمان» الناشر رفض هذا العنوان الطويل واقترح عليه اسم «كفاحى» وحسب، ولم يكتب «هتلر» فصول كتابه هذا «الثامنة عشرة» وإنما أملاها على تلميذه «رودلف هيس» الذى تميز بخطه الجميل، ثم عرضها على أحد الصحفيين فى بافاريا ليصحح الأخطاء النحوية واللغوية.. يحتوى كتاب «كفاحى» على ثمانية عشر فصلا يعرض من خلالها «هتلر» لآرائه ورؤيته لمستقبل ألمانيا وكيف يمكن أن تكون فوق الجميع، فى الفصل الثانى من الكتاب يوضح موقفه من اليهودية والماركسية فيقول: «.. ما من عمل إجرامى يتنافى مع الأخلاق إلا ولليهود فيه دخل كبير، وقد امتدت أصابع اليهود إلى جميع الميادين وفرض شعب الله المختار نفسه كالطاعون

على الكتب والمسرحيات واللوحات الفنية التى تدعو للإباحية المطلقة والماركسية وهذا الشعب المختار يتكالب على جمع المال بأية وسيلة حتى لو كانت التجارة بالرقيق الأبيض وترويج سوق الدعارة. أما العقيدة الماركسية فيجب على كل إنسان أن يقف فى وجهها لأنها حركة رهيبة سوف يؤدى انتشارها إلى سقوط الحضارة وتحويل العالم إلى صحراء جدباء.. وأن العقل الذى اخترعها ليس بعقل إنسان ولكنه عقل شيطان، فاليهود هم الذين وضعوا مبادئ الماركسية وهم الذين تولوا الدعاية لها.. إننى حينما أحارب اليهود إنما أحارب للدفاع عن مشيئة الله وأن مستقبل المانيا يتوقف على القضاء على الماركسية واليهودية لأن هناك علاقة بينهما هدفها خراب العالم..».

هكذا أعلن «هتلر» أنه ضد الماركسية وضد اليهودية، وهذا يوضح لنا سبب ما فعله باليهود بعد ذلك من قتل وتشريد، ومع ذلك فإن الباحث المدقق لابد وأن يعجب «بهتلر» لتفهمه خطر الماركسية والشيوعية منذ بدايتها وهذا ما أوضحه التاريخ بعد ذلك حتى زالت الماركسية من كثير من الدول وثبت فشلها، وهى تحتضر الآن فى دولتين تقريبا.

و «هتلر» دكتاتور لا يؤمن إلا بنفسه، ويحتقر آراء الآخرين ويكره الديمقراطية كرها شديدًا، ولعل هذا هو الذى أنهى حياته بمأساة للعالم ولنفسه، فلو سمع آراء الآخرين أو آراء الشعب ربما كان قد عدل من فلسفته وآرائه المغالية، وفى الفصلين الثالث والرابع من كتاب «كفاحى» يتحدث عن الديمقراطية فيقول: «.. الديمقراطية هى التربة الخصبة التى تنتعش فيها جرثومة الماركسية، لأن هذه الجرثومة تجد

غذاء لها فى النظام البرلمانى لأن الماركسيين سيفوزون فى الانتخابات مادامت المسألة مسألة عدد وأغلبية.. إن الديمقراطية فكرة خادعة أساسها أن جميع البشر متساوون وهذه فكرة خبيثة وهدامة، لأن الرءوس الممتازة يجب أن تحكم الأعداد الغبية التى ما عليها إلا أن تطيع، والقائد دائما فوق الجميع يتحمل كل المسئوليات سواء فى حالة النجاح أم الفشل.. إن الجماهير ما هم إلا قطيع من الأغنام فارغة الرءوس، أو هم التجسيد الحى للغباء!».

هتلر الدكتاتور لا يهتم بآراء الآخرين ولا بحرية الدول الأخرى وحقها فى الاستقلال والسيادة، ومن هنا قال فى الفصل الخامس من «كفاحى».

«.. إن مشكلة تزايد السكان تهدد ألمانيا بكارثة المجاعة والحل الوحيد هو التوسع، ولن يتحقق هذا التوسع إلا بالحرب فليستعد شعبنا لمحاربة أوروبا، ولن ينقذ ألمانيا من شبح الجوع سوى هذا الاستيلاء على أراض جديدة.. إن القوة هى مبرر كاف للغزو وليست حدود البلاد أمرًا مقدسًا وإنما هى من صنع البشر، ويمكن أن يغيرها البشر أيضًا فهى ليست مسألة أبدية مطلقة وإنما الحق مبنى على القوة..».

هكذا أعلن الدكتاتور «هتلر» عن مبادئه الهدامة واللاإنسانية فى رغبته فى الحرب للتوسع على حساب الآخرين، فألمانيا فوق الجميع، والقوة أساس الحق، تماما كما كان السوفسطائيون ينادون فى القرن الخامس قبل الميلاد فى اليونان، وكما كان السياسى الإيطالى «ميكيا فيلى» يردد «الغاية تبرر الوسيلة». يعبر «هتلر» فى الفصل

التاسع من الكتاب عن تعصبه الأعمى للجنس الآرى فيقول: «.. الحياة كفـاح ولا مكان فى هذه الدنيا للهاربين من الكفاح، والجنس الآرى هو صانع الحضارة فإذا توارى فإن الحضارة البشرية سوف تذوى.. والسبب فـى انهيار الحضارات فى الماضى هو اختلاط الجنس الآرى بالشـعوب الأقل منه، تلك الشعوب التى سيطر عليها وعمل على تحسين مستواها ولكن انهيار الحاجز بينـه وبينها هو الذى عمل على انهياره وبالتالى انهيار ما صنعه من حضارات».

ونفس الفكرة يكررها فى الفصل الحادى عشـر فيطالب بمنع الزواج بين المشـوهين والمرضى بالزهرى كى لا تأتى أجيال مريضة مشـوهة، وفى نفس الوقت يرفض استخدام وسائل منع الحمل بين الأصحاء حتى تأتـى أجيال قويـة، وفى كل فصول الكتاب تقريبًـا يردد عبارة «.. إن شعبنا متفوق على سائر الشعوب».

بهذه الصورة أملى «هتلر» كتابه: كفاحى برأيه وفلسفته ودكتاتوريته وقـد تأثر ببعض قراءاته السـابقة، والتى يجمـع المؤرخون على أنها كانت قراءات سطحية مشوشة اهتم خلالها بالعبارات الطنانة ولم يصل إلى الجوهر، فقد وجد فى نظرية «النشـوء والارتقاء» للعالم «تشـارلز دارون» بعض السـند فى دعوتـه للارتقاء بألمانيا، وتأثر بالفيلسـوف الألمانـى «نيتشـة» صاحب فكرة السـوبرمان بعد أن قـرأ كتابه «هكذا تحدث زرادشـت»، كذلك تأثر بالفيلسوف الألمانى «هيجل»، وبخاصة قولـه «.. إن الحـرب هى المطهـر الأعظم وهى التى تعمـل على إيجاد الصحة الأخلاقية للشعوب التى أفسدها السلام طويل الأمد..».

اهتم «هتلر» بحزبه النازى اهتمامًا كبيرًا، واستخدم موهبته الخطابية فى جذب أكبر عدد من الشباب إليه حتى قوى الحزب وأصبح أكبر الأحزاب، وتطلعت الجماهير إلى الحزب وزعيمه لحل مشاكلها الكثيرة من بطالة وأزمة اقتصادية وضعف الإنتاج، ورشح «هتلر» نفسه فى انتخابات رئاسة الجمهورية سنة ١٩٣٢ ولكنه فشل فى الوصول إلى مقعد الرئاسة، ومع ذلك فقد عينه رئيس الجمهورية فى شهر يناير سنة ١٩٣٣ مستشارًا لألمانيا، أى رئيسًا للوزراء، وما إن أصبح كذلك حتى سيطر على كل أجهزة الدولة وأقام حكما دكتاتوريا صارمًا وشن هجومًا كبيرًا على الشيوعيين ونشر حمام الدم وأقام معسكرات الاعتقال والتعذيب، ولم يكن يسمح لنفسه أن يخاطب يهوديًا حتى ولو عن طريق التليفون.

فى كتابه: «عباقرة ومجانين» يذكر الناقد الكبير الأستاذ «رجاء النقاش» فى الفصل الخاص بحريق الثقافة، أن «هتلر» لم يكن يخاف من أى شىء مثل خوفه من الفكر الحر والمستقل، وبعد أن استولى النازيون على السلطة فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣، أصدرت الحكومة النازية فى شهر فبراير مرسومًا وصفته بأنه إجراء دفاعى موجه ضد الأعمال الشيوعية التى تهدد الدولة، وينص هذا المرسوم على فرض القيود على الحرية الشخصية، وعلى الحق فى حرية التعبير عن الرأى، وحرية الصحافة، والحق فى الاجتماع وتأليف الجمعيات، وبالإضافة إلى ذلك نص المرسوم على مراقبة الرسائل والاتصالات التليفونية

والبرقيـــة، كما أباح للســـلطة الحق فى تفتيش البيـــوت دون أوامر من القضاء أو النيابة، وكذلك سمح بمصادرة الأملاك وفرض القيود عليها..

ويستطرد «رجاء النقاش» قائلا:

«.. وجاء العاشر من شهر مايو سنة ١٩٣٣، أى بعد حوالى مائة يوم فقط من اســتيلاء «هتلر» على الســلطة فى المانيا، ففــى هذا اليوم وعند منتصف الليل وصل عرض قام به ألوف من الطلاب يحملون المشاعل إلى ســاحة عامة تقع مقابل جامعة برلين فى شارع أونتردن لندن وسرعان ما أشعلت النيران فى كومة هائلة من الكتب وضعت فى الساحة، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكتب فى النار المشتعلة إلى أن بلغ عدد ما أحرق منها نحو عشــرين ألفاً، ووقعت مناظر مماثلة فى عــدة مدن أخرى. وهكذا بدأت عمليات إحراق الكتب، ولم يقتصر الإحراق على مؤلفات عشرات من الكتاب الألمان فحســب بل تعدهــا إلى كتاب أجانب من أمثال «جاك لندن» و «هـ. ج.» و «يلز» و «فرويد»، و «أندريه جيد»، و «هيلين كيلر» و «اميل زولا» و «مارسيل بروست» وغيرهم».

فــى نفس الوقت الذى أحرق فيه «هتلر» الفكر الإنســانى عن طريق حــرق الكتب فرض على كل ألمانيا شــراء كتابه «كفاحى» حتى باع منه مليون نســخة فى الســنة الأولى من حكمه، وأصبح هذا الكتاب انجيل النازيــة من عــام ١٩٣٣ حتى عــام ١٩٤٥، ولم تكن أية أســرة ألمانية تشــعر بالأمان ما لم تكن تملك نســختها من كتــاب «كفاحى»، وأصبح الكتــاب يقدم هدية فى الأفراح، وعنــد التخرج من الجامعة، وقد طبع الكتاب ٤٩٤ طبعة حتى عام ١٩٤٠، وبلغ مجموع ما وزع منه فى ألمانيا

وحدها حتى نشـوب الحرب العالمية الثانية خمسة ملايين نسخة. كما بلغـت عائدات «هتلر» من الكتـاب حتى عام ١٩٤٤ حوالى مليون جنيه استرليني.

أغلق «هتلـر» ألمانيا على من فيها واعتبرهـا ضيعة أبيه فتحكم فى كل شـيء وفى كل الناس وفرض إرادته وفكره الضيق وألغى شخصيات الآخرين، وتعامل مع الشـعب الألمانى كمجموعة من النعام، ووصل به الغـرور والمرض إلى أن يـردد دائما أنا التاريخ، أمـا الذين خالفوه فى الرأى فكان مصيرهم السجن والتعذيب والجوع والقتل والدمار.

اسـتطاع «هتلر» سـنة ١٩٣٤ الوصول إلى رئاسة الجمهورية ومن ثم زادت قبضتـه الحديدية علـى ألمانيا وحاول حل مشـكلاتها وأفلح فى ذلك، كما يقول «مايكل هـارت» فى كتابه «المائة» الذى ترجمه «أنيس منصور» تحت اسـم «الخالدون مائة أعظمهم محمد»، ولكن «هتلر» كان يعد ألمانيا للحرب، تلك الحرب التى شـكلت مأسـاة للإنسانية كلها، والتى قضت على كل شيء، وعلى «هتلر» نفسه، فكان سقوطه عظيمًا.

فى اليوم الأول من شـهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ هاجم «هتلر» بولندا[١] وأشعل بذلك شرارة الحرب العالمية الثانية، وانتصر جيشه فى البداية على بولندا والدنمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا ويوغوسلافيا واليونان، وتوغلت الجيوش الألمانية فى الاتحاد السوفيتى حتى اقتربت من موسـكو، كما توغلت فى شمال أفريقيا حتى هددت قناة السويس،

---

(١) أرجع إلى كتابى رحلات وحكايات.. الناشر دار المعارف سنة ١٩٩٠.

وأقام «هتلر» فى البلاد المفتوحة نظام احتلال صارم ثارت ضده حركات المقاومة العديدة، وبعد ثلاث سنوات من قيام الحرب، أى فى عام ١٩٤٢ بـدأ فى تطبيق الحل النهائى للمسـألة اليهودية فـى رأيه وهو القضاء على اليهـود فجمعهم من كل ألمانيا والبلاد التـى احتلها ووضعهم فى معسكرات اعتقال، ثم أعدمهم جميعا فى أفران بطريقة تتنافى مع أبسط المبادئ الإنسـانية، ويقال: إنه استخرج من جثثهم بعد ذلك أنواعًا من الصابون والورق والزراير إمعانا فى احتقارهم، ويقدر ضحايا هذا العمل الإجرامى بحوالى ستة ملايين يهودى[1].

لم يكـن اليهود ضحايا «هتلر» وحسـب، وإنمـا كان كل من يخالفه يذهب إلى معسكرات التعذيب حيث التعذيب والجوع والقتل بالجملة، وقد أقام «هتلر» خمسـة آلاف معسـكر فـى كل دول أوربا عذب وقتل فيها الملايين، وقد كنت شـغوفًا خلال زيارتـى لألمانيا أن أقوم بزيارة مدينة «فيمار» لأرى أحد معسـكرات التعذيب هذه، فما تسمعه وتقرأه كثـيرًا، ربما لا يصدقه عقل، وفعلا قمت بزيارة معسـكر [بوخن فالد Buchenwald] هناك رأيت العجب وكاد شعر رأسى يشيب من مجرد مشاهدة الصور وبقايا أدوات التعذيب وحكايات الضحايا.

فى مدخل المعسـكر نافورة مياه يقال: إنها كانت تسـتخدم لتربية

---

(١) تذكـر بعـض المراجع أن هذا الرقم مبالغ فيـه وأن الدعاية اليهودية هى التى تروج له حتى تسـتفيد منه، ومازالت إسـرائيل تسـتفيد حتى الآن من هذه الجريمة، ومع ذلك فقد كان «هتلر» فعلا يكره ثلاثة أشـياء اليهودية والماركسـية والديمقراطية. وقد قتل وعذب كثيرًا من اليهود.

الحيوانـــات ولكن يحـــرم على المعتقلـــين تناول طعـــام الحيوانات فقد كان كل معتقـــل يصـــرف له نصف رغيف من الخبز كل أســـبوع. وهذا كلام غريـــب، ولكن الصور المعلقة على الجدران والتى هى أشـــبه بصور هيـــاكل عظمية وليس لأناس تدل على ذلك، صـــور مخيفة للمعتقلين، وقد برزت عظام أكتافهـــم وصدورهم وأقدامهم وأحواضهم، وكأنك أمام هياكل عظمية لبعض الموتى منذ سنوات كثيرة، وحتى الأطفال لم ينجوا مـــن جنون عذاب هذا الدكتاتور الطاغية فجمعهم بالجملة وعذبهم دون ســـبب.. ومع الجوع الشديد كان المعتقلون يعملون أعمالا شاقة مما جعل معظمهم يتســـاقطون موتى كأوراق الشجر الصفراء فى الخريف، وتفنن الطاغيـــة وأعوانه فى التعذيب فكانوا يقتلون البشـــر بحرقهم فى أفران صغـــيرة وكبيرة رأيتها بعينى، ومن جنون فنونهم فى القتل هو إحضار المعتقل وإيهامه بأنهم سيضعونه على جهاز قياس الطول فيقف الضحية ومـــن خلال هذا الجهاز المعروف فى الجيش توجد فتحة صغيرة توضع فيهـــا البندقية خلف الرأس مباشـــرة وما أن يقـــف حتى يضرب بالنار فيسقط قتيلا.. وفى حجرات خاصة شـــاهدت أكوامًا من الشعر متباينة اللون والتى يغلب عليها اللون الأصفر، كذلك شاهدت أكوامًا أخرى من الأسنان الذهبية، فقد كانوا يخلعون أسنان الضحايا قبل قتلهم ويقصون لهم شـــعرهم، وأكثر من ذلك شـــاهدت أباجورات وقد صنعت من جلود الضحايا ومازالت الكتابة عليها واضحة بأسمائهم والكلمات التى كانوا قـــد رسموها على ذراعهم، إنه الجنون بشـــتى أنواعـــه، ومن الطبيعى

أن تعرف فى مثل هذه المعسكرات اللا إنسانية أن شرطيًا كان مجنونا فتفنن أكثر فى تعذيب الضحايا فرُقى إلى ضابط فى الحال، وهكذا الحال فى غياب القيم والعقل الذى يفرق بين الإنسان والحيوان.

أشعل «هتلر» الحرب العالمية الثانية ونشر معسكرات التعذيب، وظن أن ألمانيا فعلا فوق الجميع وأنهم ليسوا بشرًا كغيرهم، وهيأ له جنونه أنه سيستولى على أرض جديدة تليق بمقام المانيا، وسيحكم العالم كله، ولكن هيهات أن يسمح العالم لمجنون أن يسيطر على مقاديره ومستقبله، وفى عام ١٩٤٢، أى بعد ثلاث سنوات من بدء الحرب، بدأت أسطورة «هتلر» تهتز مع مرحلة الانتكاسات لألمانيا وحليفتيها إيطاليا واليابان فى جميع الميادين، ولم يقتنع «هتلر» بالهزيمة بل واصل القتال بتضحيات هائلة، ومنيت ألمانيا بأكبر هزيمة فى تاريخها، وانتشر الخراب والدمار، وانهار اقتصادها وتشرد مواطنوها فى الشوارع والحوارى دون مأوى، وظن البعض أنه يوم القيامة. تقول إحصائية غير مشكوك فيها: إن الحرب العالمية الثانية جرَّت إلى مدارها ٦١ دولة تعدادها مليار وسبعمائة مليون نسمة، أى ٨٠٪ من سكان الكرة الأرضية وقتذاك، واستمرت ست سنوات منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٥، وكانت أراضى أربعين دولة مسرحًا للعمليات الحربية المباشرة، أما الخسائر فى الأرواح فكانت إجمالا ٥٤ مليونًا وثمانمائة ألف نسمة موزعة كالتالى:

الاتحاد السوفيتى ٢٠ مليونا وثلاثمائة ألف نسمة.

بولونيا ٦ ملايين نسمة.

يوغوسلافيا مليون وسبعمائة ألف نسمة.

فرنسا ٦٠٠ ألف نسمة.

إنجلترا ٣٨٨ الف نسمة.

الولايات المتحدة الأمريكية٣٢٩ ألف نسمة.

المانيا ٦٦٠٠ ألف نسمة - أعتقد أن الرقم أكثر من ذلك - ١٣ مليون طفل عذبوا وأحرقوا فى معسكرات التعذيب.

جرى تعذيب ١٢ مليون شخص لا حول لهم ولا قوة فى معسكرات تعذيب ألمانيا الهتلرية (Concentration Camp) وإبادتهم. كان نصيب السكان المدنيين ٥٠٪ من مجموع الخسائر.

كلفت الحرب العالمية الثانية العالم أربعة آلاف مليار دولار. هكذا استطاع جنون «هتلر» أن يخرب العالم ويقتل البشر دون أن يجد أحدًا يوقفه عند حده وينقذ العالم من جنونه، صحيح أنه جرت محاولة لاغتياله وقتله ولكنها فشلت.

لماذا صمت الجميع وسمحوا للدكتاتور المجنون أن يضيع العالم بفكره الشاذ وعنصريته وغروره ونهمه وطمعه؟

إنه السؤال الذى يفرض نفسه علينا جميعا.. كيف نسمح لفرد واحد أن يتحكم فينا وفى دولة بأكملها وفى العالم كله فيعيث فسادًا وقتلا وتدميرًا وتعذيبًا؟

إنها مسئولية كل فرد فينا، مسئولية المثقفين الأحرار، مسئولية كل إنسان يشعر بأنه ولد حرا ويجب أن يعيش حرًا أيضًا.

لم يظهـر جنون «هتلر» فـى دكتاتوريته وعدم تقبلـه للرأى الآخر والفكر الحر، وعنصريته وحبه للتعذيب وعشقه للقتل والدمار وحسب بـل وضح جنونه أيضًا فى علاقته العاطفية بالنسـاء، وقد صدرت كتب كثـيرة فى هذا المجال، أجمعت على جنونه وشـذوذه، يقول الدكتور «كمال مرعـى» فى كتابه: «الجنس فى حياة هؤلاء»: فى صيف سـنة ١٩٢٨ كان هتلر فى ميونيخ وقد أصبح اسمًا لامعًا، أرسل إلى أخته غير الشـقيقة وتدعى «انجيلا» كى تحضر من فيينا للإشـراف على منزله، وبالفعل حضرت أخته مع ابنتها «جيلى» التى كانت تبلغ العشرين من عمرها شقراء.. جميلة.. ساحرة الحديث.. ترك «هتلر» العنان لعواطفه وغرائزه فأحب «جيلى» ابنة أخته ومارس معها الجنس، وهو خالها، وعندما كانت الفتاة الصغيرة تُفيق من نشـوتها وتتذكر أنها تخطئ مع خالها ثـم تتبرم من هذه العلاقة الشـاذة كان يهددهـا ويجبرها على الاستمرار معه، ومن شـدة غيرته عليها كان يهددها بالقتل إن هربت من حياته، واعترف بحبه وعشقه ورسم لها عدة لوحات مختلفة منها لوحات عارية تماما.

عـرف الجميـع حكاية «هتلـر» و «جيلى»، وحـذرت «آدا» إحدى صديقات «جيلى: من عواقب هذا الحب الشـاذ والمغامرة الشيطانية لكن «جيلى» فى النهاية لم تكترث بالخطأ والشذوذ بل قالت لها.. لا عليك يـا صديقتى.. فأنا أسـتطيع أن ألفه حول إصبعـى الصغير عندما أكون وحدى معه.

بـدأ نجم «جيلـى» يخبو تدريجيًا بظهور «ايفا براون» على مسـرح غراميات الزعيم، وعندما تأكدت أنها لم تعد صاحبة الحظوة فى قلبه، تعددت مشاجراتها معه حتى فى حضور الآخرين، وذات يوم اقتحمت عليه مكانه المفضل فى محل «هوفمان» حيث كان مع عشـيقته الجديدة وتشـاجرت معه بعنف مما دفعه إلى أن يصفعها بقسـوة على وجهها.. وفـى صباح اليوم التالى (نهاية عام ١٩٣١) وجدت جثة «جيلى دابول» فـى حجرة «هتلـر» مصابة بطلق نارى فى صدرها، وفى يدها مسـدس «هتلـر» نفسـه ملطخًا بالدمـاء.. وعلى الرغم من أن الشـكوك أحاطت «بهتلر» إلا أن وزير العدل حينذاك فى بافاريا، وكان من أعضاء الحزب النازى، استطاع أن يسوف الفضيحة.

بعد أسـبوع من وفاة «جيلى»، ذهب «هتلـر» إلى قبرها وبكى أمامه بـكاء مرًا، وقال لأصدقائه بعد ذلك: «لا معنى لوجود البشـر بعد وفاة جيلى..».

امرأة واحدة فقط هى التى استطاعت أن ترتبط «بهتلر» وتربطه بها، بل وتكون نهايتهما واحدة، وفى يوم واحد، إنها: «إيفا براون»، أشهر العاشـقات فى التاريخ، السيدة الرومانسـية التى عرفت من أين يؤكل الكتف.

عندمـا رآها لأول مرة كانـت فى وضع مثير.. فتاة ممشـوقة القوام ترتدى جونلة قصيرة تقف على قمة سلم معدنى فى استوديو للتصوير، إحدى قدميها على الدرجة العليا والأخرى على الدرجة السـفلى.. فى

هـذه الأثناء يدخل «هتلر» إلى المكان، فتقع عيناه أول ما تقع على الفتاة التى تقف على السلم، وتمر عيناه تتأمل الساقين وتصعدان إلى ما تحت الخصر ثم الرأس الجميل والوجه المشـرق والشـعر الذهبى السابح فى أمواج الفضاء.. وأحسـت الفتـاة بنظرات هذا الزبـون اللاذعة، والتى كادت تعريهـا أمامه، وحاولت أن تُظهر عدم اكتراثها بنظراته، ولكن وجنتيها احمرتا من الخجل.

كانـت [إيفا بـراون] حينذاك مجـرد عاملة عادية فى اسـتوديو «هوفمـان» للتصوير بمدينة ميونيـخ، عمرها ١٧ ربيعًا تقيم مع أبويها وشـقيقتها.. جميلة.. جذابة، وكان أبوها قد أرسلها إلى دير للراهبات فى ضواحى ميونيخ لتسـتكمل تعليمها على أسس دينية قويمة، لكنها عـادت قبل موعد التخرج بعام كامل ومعها رسـالة من رئيسـة الدير تقـول: «علـى الرغم من كل ما تتمتـع به «ايفا براون» مـن ذكاء نادر وطموح شـديد إلا أنها لم تستطع أن تهضم أهم شيئين فى حياة مدرسة الراهبات وهما.. العلوم الدينية والنظام الدقيق..».

بعد فشـلها فى اسـتكمال دراسـتها أخذت «ايفـا» تبحث عن عمل مناسـب لها إلى أن تعرفت إلى «هنريك هوفمان» التاجر الذكى وصاحب استوديو «هوفمان» للتصوير، كان الرجل يعرف قيمة أن يختار موظفاته وعاملاته من الجميـلات اللائى يمكن أن يجذبن ويؤثرن على الزبائن، وبسـرعة وافق «هوفمان» على تعيين ايفا موظفة فى الاسـتوديو وكانت موظفة ناجحة، وبعد أن رآها «هتلر» وأعجب بها، وكان يرتبط بصداقة

مع «هوفمان»، حاول الأخـير أن يوطد الصداقة بينهما. فبعد أن خرج «هتلر» من الاستوديو اقترب «هوفمان» من ايفا وسألها:

هل تعرفين من يكون هذا الرجل؟

أجابـت.. لا أعرف أكثر مـن أنه أحد أصدقائك واسمـه فيما أعتقد [هر وولف].

إنه [أدولف هتلر] نفسه أيها البلهاء.

ومن يكون «أدولف هتلر» هذا بحق السماء؟

وكاد «هوفمان» أن يصاب بلوثة عقلية من سـؤالها ولكنه صمت حتى يتمالك أعصابه.

فى مساء نفس اليوم سألت ايفا أباها عن هذه الشخصية التى قابلتها ولم تعرفها «أدولف هتلر» ؟.. فقال:

إنه أسوأ مخلوق فى هذا البلد.. إنه شخص كريه بغيض إنه الشيطان نفسه.. إن مكانه الطبيعى هو مستشفى المجانين.

علـى الرغم من إعجاب «هتلر» «بإيفا» مـن النظرة الأولى إلا أنها لم تشـعر نحوه بأية مشـاعر جميلة منذ البداية بل كانت تصده وتهرب منه، تقول ايفا فى مذكراتها الخاصة والتى كتبتها بيدها:

«.. عندما التقيت «بهتلر» أول مرة عام ١٩٢٨ فى أستوديو «هوفمان» للتصوير، لم يثر أى شـىء فيه إعجابى أو حتى يلفت نظرى، سواء فى شخصيته أم فى منظره العام، وضايقتنى نظراته العميقة «المحملقة» إلى طوال الوقت، ثم عرض علىَّ أن يوصلنى إلى بيتى فى سيارته المرسيدس

لكنـــى اعتذرت له.. وظل «هتلر» يتردد على الاســتوديو الذى أعمل به ويقدم لى الهدايا؛ صورًا، شـيكولاته، زهورًا دون أن أكترث به، وذات ليلــة من ليالى عام ١٩٣٠ وجدتنى أوافق على أن أذهب معه إلى الأوبرا، بل وتناولت معه العشاء، وهكذا بدأ حبى له وتجاوبى معه».

لم تكــن ايفا براون هى المرأة الوحيدة فى حياة «هتلر» بل كان حوله مجموعــة من أجمل نســاء الطبقة الراقية فى ألمانيــا، كانت هناك مثلا الســيدة «فراو هيلــين» زوجة أكبر أصحاب مصانــع البيانو فى بافاريا وكثيرًا ما شــوهد «هتلــر» وهو جالس عنــد قدميها ملقيا برأســه فى حجرها وهو يتحدث بالســاعات عن أحلامــه وتطلعاته لمجد ألمانيا.. وكانت هناك السيدة «فراو بروكمان» زوجة رجل الأعمال وصاحب أكبر دور نشــر فى ألمانيا، وكانت هناك أيضًا الســيدة «فــراو جرترود فون» التى تملك مصنعًا للورق، وقد ذكرنا علاقته أيضًا بابنة شــقيقته «جيلى دابول» والتى انتحرت أو قتلت، ومع حلول عام ١٩٣٢ ظهرت فى حياة «هتلر» العاطفية منافســة جديدة هى الســيدة الإنجليزيــة «ونيفريد» زوجة «ســيجفريد فاجنر» نجل ووريث الفنان الموسيقار الألمانى الكبير «ريتشارد فاجنر»، وكان موت الأخير فرصة لأن يخلو الجو للحبيبين، وقد شــجع الأصدقاء «هتلر» على أن يتــزوج «وينفريد» لأن هذا الزواج يفيد كثــيرًا فى الدعايــة الحزبية، ولكن الزواج لم يتم بســبب رفض الحســناء الإنجليزية لفكرة الزواج، وبعد ســنوات طويلة عرف الناس ســبب الرفض من مذكرات «وينفريد» التى نشــرت بعد الحرب والتى

تقول فيها بصراحة: إن «هتلر» كان شاذا.. وكان يطلب منها أن تجلده بالسوط أحيانًا.

من كل الصديقات والعشيقات لم تستمر واحدة مع «هتلر» إلا السيدة «إيفا براون»، أحبته وأخلصت له وتألمت معه ومن أجله، وعاشت انتصاراته الباهرة الوهمية وشهدت مأساته وهزيمته، لم تكن حياتها معه سعيدة كل السعادة، بل فكرت وحاولت الانتحار أكثر من مرة بسبب صديقاته الأخريات وإهماله لها، ولكنه أخيرًا قدر إخلاصها له فاشترى لها فيللا أنيقة من ست حجرات فى ضواحى ميونيخ وعين لها وصيفة خاصة، وأهداها سيارة مرسيدس على أحدث طراز وعين لها سائقًا خاصًا يتقاضى راتبه من خزينة الحزب.

كانت «إيفا براون» ككل فتاة تأمل وتتمنى أن تتوج هذا الحب الذى ربط بين قلبها وقلب «هتلر» بالزواج، لكنه كان مشغولا بالسياسة، وقد سأله أحد أعضاء الحزب النازى.. لماذا لا تتزوج ايفا؟

أجاب «هتلر»:

لكننى متزوج فعلا ألمانيا !

لم تيأس «إيفا» من محاولاتها، وكانت تحبه وتفهمه، بل هى الوحيدة من بنات حواء التى استمرت معه حتى النهاية، حتى ماتا معا فى يوم واحد، الطريف أن سنوات الحرب الأولى كانت أسعد فترة فى حياة «إيفا» إذ كان «هتلر» دائمًا بجانبها يأوى إلى أحضانها ليجد الهدوء والدعة والحب بعد يوم حافل بالتوتر والانفعال والانشغال

بالقتل والقتال، وساعد فى زيادة حبه لها أنها لم تكن تميل إلى الجنس فـى علاقتها معه بل كان يكفيها الحـب والتلاطف، وبخاصة أنه كان مشـغولا بالحرب يعانى من بعض الضعف الجنسى، فلم تشعره بذلك، بل عوضتـه بالعلاقة الأفلاطونية والجو الشـاعرى، ومـع كل انتصار جديـد يزداد «هتلر» زهوًا وحبا لها، ويفيض عليها بالهدايا والحنان، ولكن الحرب ما لبثت أن انقلبت على رأس «هتلر»، وبدأ زعماء النازى يتداولـون الشـكوك فيما بينهم حـول زعيمهم الـذى لا يخطئ أبدًا، أما ثقـة «إيفا» فى الزعيم فلم تتزعزع أبدًا، ومع كل هزيمة كان «هتلر» يزداد عزلة عن مسـاعديه واقترابا من «إيفـا» التى عملت بكل جهدها على رفع روحـه المعنوية، وفى ٢٠ إبريل ١٩٤٥ الذى وافق عيد الميلاد السـادس والخمسـين «لهتلر»، أقامت «إيفا» حفلا صغـيرًا فى الجناح الخاص المعد لهما فى قبو المستشـارية - المستشـارية هى مكان رئيس مجلس الوزراء - وتوافد زعماء النازى وقادة الجيش يلقون على «هتلر» تحيتهم التقليدية.. هاى «هتلر».. بينما جلس هو منكمشًـا على نفسه فوق أريكة مزركشـة لا يجسـر على الوقوف حتى لا يراه أحد مرتعشًا محطمًا، فقد كان يعانى أمراضًـا كثيرة، صداعًا دائمًا، فقدانًا للذاكرة، رعشة شديدة فى يديه، نوبات الصرع، صعوبة فى السير حتى إنه كان يرتكز على عصاه، كان الاحتفـال بعيد ميلاد «هتلر» هو المرة الأخيرة التـى يجتمـع فيها مع قادته، واضطر لشـدة مرضـه واضطرابه إلى أن يـترك مكان الاحتفال مبكرًا بصحبة «إيفا» إلى جناحه الخاص من أجل

الراحـــة، وعادت «إيفا» وحدها لتقترح على الجميع الانتقال إلى الطابق العلوى.. هناك أخذ الجميع يشـــربون ويرقصون ويصخبون حتى الفجر منصتين إلى أغنية واحدة تقول كلماتها:

«.. الوردة الحمراء بلون الدم تجلب الحظ السعيد..».

ولم يكن يقطع على الســاهرين الصاخبين متعتهم ولهوهم إلا صوت القنابل التى تنفجر فوق خندقهم.. فيصمتون لحظة كأنما على رءوسهم الطير لينطلقوا صاخبين من جديد، وكأن شيئًا لم يكن..!

يقول الضابط والدبلوماســى السابق «جيمس أودونل» فى كتابه المهم «المخبأ»:

فى يوم ١٦ إبريل عام ١٩٤٥ انتقل «هتلر» ســرًا إلى المخبأ الذى كان أكثــر الأماكن أمنًا فى برلــين، بعد أن أصبحت العاصمــة الألمانية فى حكم المنتهية وبخاصة بعد أن شــرع الحلفــاء فى تنفيذ خطة لتدميرها بالغارات الجوية اليومية بأســراب تضم أكثر من ألف وخمسمائة قاذفة قنابــل، وعندمــا زاد خطر الغارات الجوية طلب مســاعدو «هتلر» منه أن ينقــل مركز قيادته من دار المستشــارية إلى المخبــأ المعد لذلك، فقد كان أكثــر الأماكن أمنًا فى برلين، وكان اليوم الــذى انتقل فيه «هتلر» ســرًا إلى المخبــأ هو آخر يوم يــرى فيه ضوء النهار، كان ســقف المخبأ مكونًا من ١٦ قدمًا من الخرســانة المســلحة، وكانت أسقف الحجرات كلهــا واطئة جدًا والحجرات ضيقة ماعدا الجزء الخاص «بهتلر»، وفى المخبــأ عمل ونام وأكل واســتحم وحلق وأخيرًا تــزوج ثم انتحر تحت

الأرض. واستغرقت رحلة المخبأ هذه حوالى مائة يوم، ولو كان «هتلر» قد انتحر قبل انتقاله إلى المخبأ لأنقذ حياة نحو أربعة ملايين نفس ما بين قتيل وجريح فى الحرب، ونصف مليون شهيد ماتوا فى معسكرات الاعتقال النازية.

فى صباح يوم ٢٨ إبريل ١٩٤٥، أى بعد عيد ميلاد «هتلر» بأسبوع تقريبًا فوجئت [إيفا براون] باثنين من الحرس يلتمسان منها أن تستأذن «الفوهرر» كى يسمح لهما بعقد قرانهما على فتاتيهما «ماداما» قد عقدا العزم على الموت دفاعا عن برلين.. وعندما تحدثت «إيفا» إلى «هتلر» استجاب على الفور، وأمر أن يقام العرس المزدوج فى قبو الخندق أو المخبأ.. وبينما العروسان يخطوان خطوات الزفاف لمعت فى عينى «هتلر» فكرة سريعة مفاجئة، وانحنى على أذن «إيفا» يهمس لها بفكرته، ولم تصدق بل كادت تفقد توازنها، وأرسل «جوبلز» يطلب حضور القس «والتر واجنر» الذى ما لبث أن وصل على ظهر عربة مدرعة، وتمت مراسم الزواج بسرعة بعد منتصف ليلة ٢٨ إبريل، وارتدت «إيفا» فى حفل زواجها فستانا أسود من الحرير وحلية ذهبية كان «هتلر» قد أهداها إليها، وبعد الزواج بدقائق قليلة، تسلمت ايفا رسالة قصيرة من شقيقتها تقول فيها: «انقذى زوجى، لقد أصدر «هتلر» قرارًا بإعدامه رميا بالرصاص..».

وحاولت ايفا استعطاف زوجها بعد زواجهما بدقائق أن يخفف حكم الإعدام عن زوج شقيقتها، ولكنه نهرها قائلا:

«.. النظـام هو النظام.. إن زوج أختـك غادر المقر دون إذن.. واعتقل بملابس مدنية بعيدًا عن وحدته.. هو إذن جندى هارب.. والعقوبة هى الإعدام رميًا بالرصاص.. انتهى..».

وتسلم «هتلر» بعد ذلك برقية تقول: إن الجماهير الإيطالية أمسكت «بموسولينى» وعشيقته «كلارا بيتش» وقتلتهما ثم علقتهما من أقدامهما فى شجرة مرتفعة لتنهال عليهما أكثر من مليون بصقة.. وأعطى «هتلر» البرقيـة إلى «إيفا».. والتقت عيناهمـا، وفهمت ما تعنيه نظرته يجب إذن أن يتفاديا هـذا المصير.. وقرر الاثنان الانتحار.. قال «هتلر»: إنه كان يـود أن يعيش حتى ٥ مايو ذكـرى وفاة نابليون بمنفاه فى جزيرة سـانت هيلانة.. وأصدر تعليماته بأن يدخلوا بعد عشر دقائق ليحملوا جثته وجثة زوجته «إيفا» إلى خارج المخبأ ويتخلصوا منهما حرقًا حتى لا يتركوا لها أثرًا.. ودخل «هتلر» و «إيفا» إلى مخدعهما أمام الجميع، بينما كانت «إيفا» تمسك فى يدها أنبوبة سيانور البوتاسيوم التى أعطاها لها الزعيم.. بعد لحظات سمع الجميع صوت طلق نارى، وساد الصمت، ودخل الجميع ليجدوا «هتلر» مكومًا على الأريكة والدم يسيل على خده الأيمن، كان قد أطلق على نفسه الرصاص بعد أن تناول السم حتى يتأكد من موتـه.. أما «إيفا» فكانـت ممددة على الطرف الآخـر من الأريكة كأنها نائمة، وإلى جانبها مسدسـها الذى لم تستخدمه، وتحت قدمها بقايا أنبوبة السيانور، كانت ميتة تماما ولكنها مبتسمة، ونقلت جثتا «هتلر» و «إيفا» إلى حديقة دار المستشـارية وسـكبت عليهما خمسـون جالونا مـن البنزين، وأثناء اشـتعال النار وقف الجميـع وقفة انتباه

وحيوا جميعا «هتلـر» تحية النازى برفع يدهم اليمنى. وانتهت بذلك حياة حاكم طاغية مجنون، مريض بالنرجسـية وجنون العظمة والحقد والميل إلى الانتقام وسـفك الدماء، وعدم الرحمة، فقد تسبب فى إشعال حرب عالمية كان ضحاياها حوالى ٥٥ مليونًا من البشـر، وتشاء قدرة الله أن تجعله ينتقم من نفسه ويصدر الحكم على نفسه بالإعدام بالسم ورميا بالرصاص، وهذا ما حدث فعلا.

يقول «سيباستيان هافنر» فى كتابه «هتلر»:

«.. إن حيـاة «هتلر» ظلت تحمل بين طياتها عوامل الفشـل الذريع منـذ البدايـة وحتى النهايـة، وإن المرحلة الأولى لم تكـن وحدها هى مرحلة الفشـل والضعف والإحباط، بل إن هذا الفشل استمر حتى خلال اللحظـات التى تصور فيهـا البعض أن «هتلر» أصبـح فى قمة مجده، فقد افتقد «هتلر» طوال مراحل حياته كل شـىء يمكن أن يضفى القيمة والدفء والكرامة على الحياة الإنسانية افتقد التعليم والحب والصداقة والـزواج، وقد عانى «هتلر» بعيدًا عن السياسـة، حيـاة خاوية باردة بلا معنى، وربما يفسـر هذا اسـتعداده المسـتمر عبر مختلف مراحل حياتـه للانتحار، وصاحبه هذا الاسـتعداد فـى كل وقت بل وكان هو المصير الذى انتهى إليه..».

تـرى ألم يكن مـن الممكن الوقوف فـى وجه هـذا الحاكم المجنون الدكتاتـور منـذ البدايـة، وتقليم أظافـره، حتى لا تقتـل ولا تعذب الملايين؟

أعتقد أنه كان ممكنا.